لأمْرٍ يرجعُ إلى نفسِه وذلك من المحال الذي يُضْحَك منه لأنه لا معنى للإِيجاز إلا أنّ يدلّ َ بالقليل منَ اللّ َفظِ على الكثيرِ من المعنى . وإِذ لم تجعلْه وصفاً للفظ من أجلِ معناه أبطلتَ معناه أعني أبطلتَ معنى الإِيجاز .

ثم إنّ َ هاهنا معنًى شريفاً قد كان ينبغي أن نكونَ قد ذكرناه في أثناءِ ما مضى من كلامِنا وهو أن العاقلَ إذا نَظَر عَلِمَ عِلْمَ ضرورةٍ أنه لا سبيلَ له إلى أن يُكْثِرَ معانيَ الألفاظَ أو يُقَلّ ِلَها لأنّ َ المعانيَ المودعةَ في الألفاظ لا تتغيرُ على الجملةِ عمّ َا أرادَه واضعُ اللغة . وإِذا ثَبتَ ظَهَرَ منه أنه لا معنى لقولنا : كثرةُ المعنى مع قلّ َةِ اللفظ غير أنّ َ المتكلّ ِم يَتوصّ َلُ بدلالة المعنى على المعنى إلى فوائِدَ لَوْ أنّ َه أراد الدلالةَ عليها باللفظ لاحتاجَ إلى لفظٍ كثير .

واعلمْ أن القولَ الفاسدَ والرأيَ المدخولَ إِذا كان صدورُه عن قوم لهم نَبَاهة وصيتٌ وعلوّ ٌ منزلةٍ في أنواعٍ من العلوم غير العلم الذي قالوا ذلك القولَ فيه ثم وقَعَ في الألسنِ فتداولتْه ونشرتْه وفشاً وظهِرَ وكَثُر الناقلون له والمُشيدون بذكره وصارَ تركُ النظر فيه سُنةً والتقليدُ ديناً . ورأيت الذين هم أهلُ ذلك العلم وخاصتهُ والممارسون له والذين هم خلقاءُ أنْ يعرفوا وَجْهَ الغلطِ والخطأ فيه - لو أنّ َهم نظروا فيه - كالأجانب الذين ليسوا من أهله في قبوله والعملِ به والركونِ إليه ووجدْتَهم قد أعطوه مقادتهم وألانوا لهُ جانِبَهم أو أَوْهَمهم النظرُ إلى منتماهُ ومنتَسبهِ ثم اشتهارُه وانتشارُه وإطباقُ الجمع بعدَ الجمع عليه أن الضّ َنّ َ به أصوبُ والمحاماةَ عليه أولى . ولربما بل كلّ َما ظنوا أنه لم يَشِعْ ولم يَتّ َسعْ ولم يَرْوِهِ خلفٌ عن سَلَف وأخِرُ عن أول إلاّ لأن له أصلاً صحيحاً وأنه أُخِذَ من مَعدن صدقٍ واشتُقّ َ من نَبعةٍ كريمةٍ وأنه لو كان مدخولاً لظهر الدَخَلُ الذي فيه على تقادُم الزمان وكرورِ الأيام . وكمْ من خطأ ظاهرٍ ورأيٍ فاسدٍ حَظِيَ بهذا السببِ عندَ الناس حتّى بَوّ َؤوه في أخصّ ِ موضع من قلوبهم ومنحوه المحبّ َةَ الصادقةَ من نفوسهم وعطفوا عليه عطفَ الأمّ ِ على واحِدِها . وكم من داءٍ دَويّ ٍ قد استحكم بهذه العلّ َةِ حتى أعيا علاجُه وحتى بَعِلَ به الطبيبُ . ولولا سلطانُ هذا الذي وصفتُ على الناس ون له أخْذَةً تمنع القلوبَ عن التدبّ ُر وتقطعُ عنها دواعي التفكّ ُر لما كان لهذا الذي ذهبَ إليه القوم في أمرِ اللفظِ هذا التمكّنُ وهذه القوةُ